

## نقد الحداثة

تأليف: ألان تورين.

منشورات: المجلس الأعلى للثقافة، 1997 م.



مراجعة: ميرفت إبراهيم\*

### عن الكتاب

تحتلُّ الحداثة، بما تُمثِّله من مسيرة للمجتمعات الغربيَّة من عصر النَّهضة إلى العصر الرَّاهن، موضوعًا فكريًّا جدليًّا بامتياز، وخاصَّة في الغرب الأورويي، حيث تتجاذب الآراء والتَّحليلات حولها، بظهور اتِّجاهٍ يُعلن انتهاء الحداثة والدُّخول في مرحلة ما بعد الحداثة مع قطيعة تامَّة مع الحداثة. ولكن هل نستطيع القول بانتهاء الحداثة بالمُطلق، وبدء مرحلة ما بعد الحداثة؟ سؤال شغل بال المُفكرين الغربيِّين في الآونة الأخيرة.

\* طالبة ماجستير في جامعة القديس يوسف، كَلِّية العلوم الدِّيْنِيَّة. اختصاص: علاقات إسلاميَّة مسيحيَّة .

يأتي كتاب آلان تورين في سياق تلك التَّجاذبات ليُطرح تحديداً جديداً لمفهوم الحداثة، فيعرض لمحة تاريخيةً فكريةً لمفهومها الكلاسيكي. ومن ثمّ، يذكر انتصاراتها وانهازمها، ليخلص إلى مُحدّدات يمكن عدّها جديدةً تقدّم الحداثة على أنّها علاقة مُتوتّرة بين العقل والذّات، بعدما كانت بمفهومها الكلاسيكيّ مختزلة بالعقلنة والعقلانيّة.

### كتاب نقد الحداثة

يُمثّل كتاب نقد الحداثة لآلان تورين، وهو من أهمّ علماء الاجتماع الغربيين المُعاصرين، نظرةً ثوريةً على الحداثة بمفهومها التّقليديّ الكلاسيكيّ، وذلك أنّ هذا المفهوم وباختزاله الحداثة بأحد بُعديها عاجزاً أن يُقدّم صورةً كاملةً ووافيةً لها. لذا، نراه في كتابه هذا يستعرض التّاريخ الفكريّ للمفهوم الكلاسيكيّ للحداثة، الذي يختزلها بالعقلنة. ومن ثمّ، ينتقل لبيان أزمة الحداثة، التي نتج منها الانفصال بين الحداثة والعقلنة بعدما كانت مختزلة بها؛ ليخلص إلى تحديدٍ جديدٍ للحداثة يجعل كلاً من العقلنة والذّات شطراً من شطورها؛ بحيث لا يمكن أن تختزل لأحدهما دون الآخر؛ بل تقوم بالعلاقة المُتوتّرة بينهما بحسب تعبير الكاتب.

يتعرّض تورين في كتابه للأزمة التي واجهت الحداثة، على مختلف المستويات: الثقافيّة، والاقتصاديّة، والفكريّة، والسّياسيّة، والاجتماعيّة، والنّفسيّة، والتي كان من نتائجها انفصال القوي الاجتماعيّة إلى أربع: الإيروس، والاستهلاك، والمؤسّسة الإنتاجيّة، والأمة. ويشير تورين أنّ ذلك الانفصال ليس انفصلاً كليّاً يلغي التّربط فيما بينها؛ بل يبقى التّربط قائماً بما يحفظ الحداثة، ويحول دون اضمحلالها وفنائها، وهذا لا يتعارض مع ما يقوله عن انتهاء الحداثة، والدخول في مرحلة ما بعد الحداثة، لسبب أنّ ذلك الأقول للحداثة وفقاً لتورين؛ إنّما هو للمفهوم الكلاسيكيّ للحداثة الذي يقضي اختزالها بالعقلنة، أمّا مرحلة ما بعد الحداثة، فليست سوى مرحلة جديدة للحداثة نفسها، لكنّها تقتضي تخليصها من التّراث التّاريخيّ الذي اختزلها بالعقلنة، وتوجب إدخال فكرة الذّات الشّخصيّة وتحقيقها في إطار تعريفها وتحديدها.

هنا تبرز أهميّة الكتاب كونه لا يُمثّل هجوماً عشوائياً على الحداثة؛ بل هو دراسة تاريخيةً فكريةً لمفهوم الحداثة الكلاسيكيّ، ثمّ بيان تهافت ذلك المفهوم

ودخوله في أزمة تقتضي تحوُّله وتحديثه، من فكر يختزلُ الحداثة بالعقلنة، إلى فكرٍ يُغني الحداثة ويحدِّدها بالعقلنة والذَّات، فيُمثِّل هذا الكتاب مادَّةً غنيَّةً لمن أراد الاطِّلاع على المفهوم الكلاسيكيِّ للحداثة الَّذي يطابق بينها وبين العقلنة، وعلى تاريخ انتصارها وسقوطها. ومن ثمَّ، الخروج من المفهوم الكلاسيكيِّ للحداثة إلى مفهومٍ جديدٍ يُقدِّمه آلان تورين بوصفه علاقةً بين العقل والذَّات.

## أقسام الكتاب

جاء الكتاب في مقدِّمة، وثلاثة أجزاء، وعنوان أخير.

### الجزء الأوَّل: الحداثة المنتصرة

يستعرض تورين انتصار المفاهيم العقلانيَّة للحداثة، على الرِّغم من تصدِّي الثُّنائيَّة المسيحيَّة لتلك المفاهيم، تلك الثُّنائيَّة التي تبثُّ الرُّوح في فكر ديكارت، وفي نظريَّات الحقِّ الطَّبِيعيِّ، وإعلان حقوق الإنسان. فيُشير الكاتب إلى الارتباط الوثيق بين الحداثة والعقلنة، بما يجعل انتفاء إحداها يُلازم انتفاء الآخر، ويعتقد الكاتب أن ما يُميِّز الفكر الغربيِّ في أقوى لحظات تماهيه مع الحداثة هو تعميم نشاط العقلنة ليشمل ويعمِّ ليس فقط النُّشاطين: العلميِّ، والتَّقنيِّ؛ بل يشمل الإدارة البشريَّة بطريقة تميل إلى التَّعسُّف أكثر منها إلى التَّحرُّر والتَّحديث.

يُشير الكاتب أن صورة الحداثة القائمة اليوم هي صورة الفراغ، صورة المجتمع الفراغ من الفاعلين؛ ففاعل التَّحديث ليس فئة، أو طبقة اجتماعيَّة مُعيَّنة؛ بل هو العقل نفسه والضرورة التاريخيَّة التي مهَّدت لانتصاره، وبهذا يكون التَّحديث إنجازاً للعقل نفسه؛ بحيث لا ينبغي للسياسات الاجتماعيَّة أن تصرف أيَّ جهدٍ في عمليَّة تحديث لا يكون هدفها تمكين العقل من أن يسود ويحكم.

يوضِّح الكاتب أن تلك الصُّورة عن الحداثة بدت لمرحلةٍ طويلةٍ منتصرة، ولم يتمَّ انتقادها إلا في النِّصف الثاني من القرن التَّاسع عشر، ويشير الكاتب أنه ومع ديكارت بدأ العقل الموضوعيُّ بالانهيار، مفسِّحاً المجال أمام العقل العمليَّاتيِّ الأدا تيِّ. وبذلك الوقت، تأكَّدت حرِّيَّة الذَّات الإنسانيَّة، وترسَّخت في الوعي، وقد حُتِمت مرحلة القرنين: السَّابع والثامن عشر بإعلان حقوق الإنسان والمواطن، وبحسب الكاتب فهو النَّصُّ الأخير الَّذي نادى بالطَّبِيعَة الثُّنائيَّة للحداثة، والتي تتشكَّل من العقلنة وتحقيق الذَّات، وذلك قبل انتصار النَّزعة التاريخيَّة التي سادت قرناً من الزَّمن.

يُبين الكاتب في ختام ذلك الجزء أن التَّحديث الاقتصاديَّ المُتسارع الذي عرفته أوروبا وأمريكا أنتج تغيير مبادئ الفكر العقليِّ إلى موضوعاتٍ اجتماعيةٍ وسياسيةٍ عامَّة، حيث انشغل المُفكرون طوال القرن التاسع عشر وجزءاً من القرن العشرين بتحويل القانون الطَّبيعيِّ إلى إرادة جماعيةٍ، ولم يعد الأمر مُقتصرًا على إعمال العقل، وإزالة ما يعرقل مسيرته؛ بل ينبغي السَّعي وراء الحداثة والرَّغبة فيها لذاتها، وتنظيم مُجتمع خلاق لها، مُتحرك ذاتيًّا، مع المحافظة على التَّماهي بين الفاعلين الاجتماعيين والقوى الطَّبيعية؛ وينطلق آلان تورين من هزيمة الفكر المسيحيِّ والحقِّ الطَّبيعيِّ أمام فلسفة التَّنوير للإشارة إلى وجود إدراك لموقفٍ تاريخيٍّ جديد، أو نوعٍ جديدٍ من المجتمعات لا تتحدَّد فيه الحداثة بمبدأٍ وحيدٍ شموليِّ، ولكن بوساطةٍ توتَّراتٍ جديدةٍ بين العقلانية والذاتية.

### الجزء الثاني: الحداثة في أزمة

يعرض الكاتب لنقد الحداثة، وهذا النَّقد كما صرَّح لا يعني رفضها؛ وإنما الفصل بين عناصرها، وتقديم تحليلٍ لكلِّ عنصرٍ على حدة. ولذلك، نراه في ذلك الجزء يستعرض القوى الأربع (الجنس - الاستهلاك السِّلعي - المؤسسة الإنتاجية - الأمة) التي سيطرت على المسرح الاجتماعيِّ، والتي لم تكن لتظهر بذلك الظهور القويِّ لولا تفكك الحداثة الكلاسيكية التي كانت تقوم على اتِّحاد الفردية والعقلانية.

فبعد الأمل في تحديثٍ مُنسجم، وفي انتصار أنوار العقل وقوانين الطَّبيعة التي تقضي على أوهام الوعي وأكاذيب الأيديولوجيات، ولا عقلانية التُّراث، وعلى الامتيازات، جاء الاعتراف المُفاجئ بالقوى التي يُغيِّر تنوعها المجالين: الثقافيِّ، والاجتماعيِّ؛ فيحلُّ التَّفكك مكان الوحدة، ذلك أنَّ الأنموذج الشَّامل للحداثة ذي الأبعاد الثقافيَّة والاقتصاديَّة والسياسية عندما يتفكك إلى: الجنس، والاستهلاك، والمؤسسة الإنتاجية، والأمة؛ يذوي العقلانية ويجعلها من البواقي.

يُشير الكاتب إلى أنَّ تحطيم الأنا في مُجتمع حديث، تحلُّ فيه الحركة وعدم التَّحديد محلَّ النظام والواجب تجاه الدولة، يُعدُّ بوصفه مؤشِّرًا - أكثر من أيِّ تغييرٍ آخر - إلى نهاية الحداثة الكلاسيكية. تلك الحداثة التي ظهرت بوصفها مُعاديةً للمُجتمع التَّقليديِّ، والتي كانت تنادي بوجوب تماهي الفرد مع العقل الكونيِّ بدلاً من أن يشغل المكان الخاصَّ به، أصبحت (تلك الحداثة التَّقليدية) منذ نتشيه وفرويد - واللذين يمكن عدُّهما وبحسب الكاتب مؤسسي ما بعد الحداثة - تبدو

أقرب إلى المجتمع الديني التقليدي منه إلى الحداثة، وذلك أن انتصار النزعة الفردية بوصفها مقابلاً لتدمير الأنا يحدّد حداثة جديدة.

هذا وكما بيّن تورين، فإنّ فكر كلاً من ماركس ومنتشيه يلقي الضوء على قطاع كبير من الحداثة المنفرطة، فيعدّ ماركس معادياً للنزعة الإنسانية؛ بحيث تُسيطر المادّية وما تُمثّله من نضال ضدّ النزعة الذاتيّة على مجمل أعماله، ويرفض منتشيه فكرة الذات من مبدأ القوّة التي اعتمدها في فلسفته، وبذلك يصبح الفكر مع منتشيه معادياً للبعد الاجتماعي، ومعادياً للحداثة، ويحذّر من القوى الاجتماعيّة والفاعلين الاجتماعيّين ومن العلاقة فيما بينهم. ويُشير تورين أن تدمير الأنا وصل إلى أقصى مداه مع فرويد، وتعدّ كتاباته من أهمّ الكتابات الهجومية المُنهجة ضدّ أيديولوجيا الحداثة، وذلك أنّه يفكّك بين الفرد وما هو اجتماعي، فهما بالنسبة إليه عالمان مُتعارضان تماماً.

هذا ويتعرّض الكاتب في ذلك الجزء من الكتاب لتحديد فاعليّات الحداثة الأربع (الأمة - المؤسسة الإنتاجية - المستهلك - أنثروبولوجيا الهو)، ويشير إلى أنّ كلّ فاعل من هذه الأربعة يمثّل نقطة محوريّة في تلك الحداثة المنفرطة. ويعتقد الكاتب أن انفراط الحداثة إلى أربع قطع موزعة على الجهات الأربع الأصليّة للحياة الاجتماعيّة هو حركة رباعيّة نحو التحرُّر؛ بحيث من جانب، هناك تأكيد الإيروس ضدّ القانون الاجتماعيّ والصّبغة الأخلاقيّة، وهو ما تمّ بوساطة منتشيه وفرويد، ومن جانب ثانٍ هناك بزوغ الآلهة التوميين في مواجهة كونيّة السوق والتّقود، ومن جانب ثالثٍ، هناك تركيز المؤسسات الإنتاجية والإمبراطوريّات الصنّاعيّة والمصرفيّة. وأخيراً، ظهور الرغبات التي تفلت من التّحكم الاجتماعيّ؛ لأنّها لم تعد مرتبطة بوضع اجتماعيّ. ويوضّح تورين أنّ ذلك المشهد الاجتماعيّ وُلد من تفكّك الأنموذج الذي يربط بين الحداثة وانتصار العقل.

يؤكد تورين أنّ انفراط الحداثة لا يعني اضمحلالها واختفائها؛ بل يُفهم في سياق الأزمة التي تمرّ بها، ويشير إلى أنّ الانفصال التدريجيّ لأربعة مجالات ثقافيّة في السّاحة الاجتماعيّة لا يلغي ارتباط تلك المجالات بوساطة العقل الأداّتي. ومن ثمّ، لا يُمكن عدّ تلك الأزمة خروجاً كليّاً من الحداثة؛ فالخروج الكليّ؛ إنّما يكون عندما ينفصل مجال العقلانيّة الأداّتيّة بشكل كليّ في مجال الفاعلين الاجتماعيّين والثقافيّين؛ بحيث يذهب كلٌّ من الإيروس، والاستهلاك، والمؤسسات الإنتاجية،

والأمة كل في طريق، بينما ما دامت العقلانية الأداة تنسج شبكة علاقات بين هؤلاء الفاعلين، فتبقى الحادثة مُصانة.

يُبين الكاتب أن التَّهديد الأهمّ اليوم ليس هو إغلاق عالم جامد وساكن ذي قوانين شديدة الخطر؛ وإنما هو فوضى مجتمع يتصادم فيه مجال التَّقنيات والتنظيمات بعنف مع مجال الرِّغبات والهوايات. فحركة ما بعد الحادثة تدفع إلى تدمير التَّصوُّر الحداثي للعالم إلى أقصى مداه، بتحديد نهاية مملكة التكنيك والعقل الأداة، فتعمل على إحداث طلاق بين النظام والفاعلين، ولكن بالنسبة إلى الكاتب يستحيل أن يتمّ القبول بانفصال كامل للمجتمع والفاعلين. ولذلك، نجد أنه يبحث في تعريف جديد للحادثة وتحديدها بدل رفضها بالكامل.

### الجزء الثالث: ميلاد الذات

يُشير الكاتب أن الغرب بقي لمرحلة طويلة يختزل الحادثة بالعقلانية الأداة، التي تتحكم بالعالم بوساطة العقل والتكنولوجيا، وهذا سلاح خطير ذو حدين؛ فمن ناحية أولى، لا يمكن الاستغناء عنه، وذلك لما يمثله من سدّ منيع بوجه الشمولية والرؤية الوحيدة، ولكن ومن ناحية أخرى، إن تحديد الحادثة بفاعلية العقلانية الأداة غير كافٍ لإعطاء صورة شاملة وكاملة عنها، وذلك أن اختزال الحادثة بالعقلانية الأداة لفاعل حصري للحادثة يخفي جانبها الآخر المُكمل لها وهو انبثاق الذات الإنسانية بوصفها حرةً وإبداعاً. وبهذا، فالحادثة لا يمكن تحديدها خارج إطار وجهيها والحوار بينهما، فبالحوار بين العقلانية وتحديد الذات تتبلور الحادثة وتتوضَّح وتحدَّد.

والذات - بحسب الكاتب - هي خلق عالم مُنظَّم بوساطة قوانين عقلية ومعقولة بالنسبة إلى الفكر الإنساني، ومن يقول بالمطابقة بين الحادثة والعقلنة لا يتطرق إلى الذات إلا لاختزالها إلى العقل نفسه؛ لكي يفرض نزع الذات الشخصية للإنسان والتضحية بها في سبيل التماهي مع النظام العام، وواقع العالم الحديث يُظهر عكس ذلك، فهو يدعو إلى ذات محررة؛ بحيث يجعل مبدأ الخير يكمن في سيطرة الفرد على أفعاله ووضعه، والتي تسمح له بإدراك سلوكياته، والإحساس بها بوصفها مكونات لتاريخه الشخصي، وأن يدرك نفسه بوصفه فاعلاً، فالذات تكمن في إرادة الفرد في التصرف والاعتراف به بوصفه فاعلاً.

يُشير تورين أن الفرد إن لم يُشكّل نفسه بوصفه ذاتاً، فسوف يُشكّل بوصفه

ماهيةً بوساطة مراكز السُّلطة التي تُحدّد الأدوار الاجتماعية وتصدق عليها، والفرد لا يصبح ذاتاً مُنتزِعاً من الماهية إلا إذا عارض منطق السَّيطرة الاجتماعية باسم منطق الحرّية. والإنتاج الحرّ للذات لا يتنافى مع بناء الفرد بوصفه فاعلاً في موقعه الاجتماعي، ففكرة الذات لا تتعارض مع فكرة الفرد؛ بل تُفسرها بشكل خاصّ؛ بحيث ينبغي لهم النُّظر إلى حضور الذات في الفرد على أنه تمييز للفرد عن النظام الاجتماعي، وعلى أنه خبرة معاشة في آن. وبذلك، تكون فكرة الحداثة اعترافاً بوجود مُجتمع جديد، وبوجود فاعلين تاريخيين جُدد.

وبهذا، يخلُص تورين في ذلك الجزء إلى أن الحداثة الجديدة تجمع بين العقل والذات كلٌّ منها يندمج بالآخر بوصفهما عنصرتين مُتحدّين ضمن العناصر الثقافيّة للحداثة المنفرطة؛ فالحداثة ليست سوى علاقة وتوتّر بين العقلانيّة والذاتيّة، ويوضّح الكاتب أن الذات لا تُوحّد العناصر المنفرطة للحداثة (إيروس - الأمة - الاستهلاك - المؤسّسة الإنتاجيّة)؛ وإنما تُعيد بناء الحقل الثقافي المنفرط من خلال ربط تلك العناصر ناسجة شبكة متينة من علاقات التكامُل والتعارض فيما بينهم، وعلى الرّغم من ذلك الدّور الثقافيّ الفاعل للذات، يوضّح الكاتب أنه لا ينبغي اختزال الحداثة في ميلاد الذات فهذا يُدمر الذات ويحوّلها إلى ضدّها؛ بل ينبغي لهم إضافة موضوع ميلاد الذات إلى جانب الإنتاج والاستهلاك الضّمخ، في سياق تعريف الحداثة ووصفها.

في ختام ذلك الجزء، يُشير الكاتب إلى أن الغرب كان يعتقد لمُدّة طويلة أن التّحديث ليس إلا الحداثة في حالة التّنفيذ، وأنه كان مُتجانساً تماماً ومُنتجاً بوساطة العقل العلميّ والتكنيك، ولكنّ القرن العشرين سادته سلسلة مُتتابعة من أشكال التّحديث الغربية والمفروضة أكثر فأكثر بوساطة سلطة إماما وطنيّة وإماما أجنبيّة؛ وهي أشكال من التّحديث تتزايد في إراديتها وتقلّ في عقلانيّتها، لدرجة أن هذا القرن الذي استهلّ بالنزعة العلميّة يبدو أنه قد انتهى بعودة الأديان.

### الخاتمة: «نقطة الوصول: صورة المجتمع»

في نقطة الختام، في هذا الكتاب، ضمن عنوان «نقطة الوصول: صورة المجتمع»، يؤكّد الكاتب صورة المجتمع الجديد، ويشير إلى أننا اليوم لا نتنقل من الحداثة إلى ما بعد الحداثة بوصفها مرحلة جديدة تماماً؛ بل يمكن عدّ مرحلة

الحدثاء التي سادت في القرنين اللذين أوشكا على الانتهاء بكونها مرحلة محدودةً وجزئيةً للحدثاء، ونقف اليوم أمام مفهوم أشمل للحدثاء، وخصوصاً أن الحدثاء في ذينك القرنين لم تقطع الرباط الذي يربط الحياة الاجتماعية بنظام العالم، فهي لم تندثر بالكامل؛ بل بقيت مُصانةً بذلك الربط.

يُشير تورين لخيارين للمجتمع في سبيل تمّوضعه من المستجدات السوسولوجية: إمّا الخضوع تماماً لمنطق العقل الأداتي والطلب السلبي، والاندفاع بالعلمنة إلى إلغاء كل صورة للذات، ويقتصر على الجمع بين العقلانية الأداة والاستهلاك الضخم، وبين ذاكرة التقاليد الموروثة والجنس المُتحرّر من القواعد الاجتماعية، وإمّا الجمع بين العقلنة وتحقيق الذات بين الفاعلية والحريّة، فالعقل والذات كما يمكن أن يكونا عنصريّن غريبيين مُتعارضين، يمكن أن يتحدّا بما ينتج الحركة الاجتماعية، ويشهد التاريخ بحسب الكاتب وخاصةً تاريخ الحدثاء أنه تاريخ التأكيد المزدوج للعقل والذات؛ فالتعارض الذي كان موجوداً في عصريّ: النهضة والإصلاح، والحركات الاجتماعية ابتداءً من حركات البرجوازية الثورية ثم الحركة العمالية. وأخيراً، الحركات الاجتماعية الجديدة ذات الأهداف الثقافية أكثر منها الاقتصادية، تدعو جميعها وبشكلٍ حثيث إلى الجمع بين العقل والذات، وذلك بالفصل المُتنامي للعقل عن المجتمع من جانب، وللذات عن الفرد، من جانب آخر.

إنّ كتاب ألان تورين «نقد الحدثاء» يُمثّل رؤيةً جديدةً تسعى إلى تحديث الحدثاء، وإصلاحها، وتطعيمها؛ فالكاتب لا ينقد الحدثاء في سبيل هدمها والتضحية التامة بها أمام نموذج جديد بالكامل؛ بل يدعو إلى الرجوع إلى أصولها والبناء عليه مع إضافة الذات وتحقيقها، وهذا ما تفرضه المُتغيّرات التي طرأت على الساحة الاجتماعية، فبروز الحاجة الملحة للاعتراف بالخبرة الشخصية الذاتية للفرد، يقتضي تحديث الحدثاء بما يتناسب مع الاجتماع العام وتطوّراته؛ بحيث لا تكون حبيسة فكر وأيديولوجيا، تريد تأطيرها وعزلها بالعقلنة عن الانفتاح أمام المُتغيّرات المُستجدة، فالحدثاء إنّما تتكوّن من تكاملٍ وتعارضٍ بين عمل العقل وتحرير الذات، في سياق إنتاج حركة اجتماعية جديدة؛ تؤسّس لِرقيّ المجتمع وتطوّره.